PP-645-654
P-ISSN: 2716-8093 E-ISSN: 2716-8212

ثقافة الذات والآخر في رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة

The culture of self and other in Ibn Fadlan's journey to the land of the Slavs

عبد الله حرمه
Abdellah harma
جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)،
abde.harma@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024/11/24 - تاريخ القبول: 2025/04/06 - تاريخ النشر: 2025/06/04

ملخص:

إن أدب الرحلة نص سردي يقوم على مشاهدة ووصف حياة الأمم والأقاليم البعيدة، بغرض توثيق مختلف نظم معيشتهم وسائر عاداتهم، ظهر ذلك في القرن الرابع الهجري، حيث اختلف دوافعه بين الرحالة من اكتشاف الآخر إلى طلب أفراد لغرض أو أغراض متعددة، مثلما حدث مع ابن فضلان الذي يهدف للتطلع على الغير ومحاولة الانفتاح عليه، لتحقيق التمازج والتكامل بين الثقافات والحضارات المتباينة.

ومما توصلت إليه أن ابن فضلان كانت رحلته بهدف تعليم الدين الإسلامي للآخر، فقامت على ثنائية التزيين والتقبيح (الذات والآخر) لما عايشه في تلك الفترة من أوصاف ومشاهدات، إضافة إلى نظرته الدونية لأخلاق وعادات الصقالبة السلبية التي استعصت أحيانا على التقويم.

كلمات مفتاحية: ابن فضلان؛ الرحلة؛ الذات؛ الآخر؛ الصقالبة.

Abstract:

Travel literature is a narrative text based on observing and describing the lives of distant nations and regions, with the aim of documenting their various living systems and other customs. This appeared in the fourth century AH, where its motives differed among travelers from discovering the other to seeking individuals for one or more purposes, as happened with Ibn Fadlan, who aimed to learn about the other and try to open up to him, to achieve integration and integration between different cultures and civilizations.

What I have concluded is that Ibn Fadlan's journey was aimed at teaching the Islamic religion to others, so it was based on the duality of embellishment and ugliness (self and other) for what he experienced in that period of descriptions and observations, in addition to his inferior view of the negative morals and customs of the Slavs that sometimes resisted evaluation.

Keywords: Ibn Fadlan; Journey; Self; Other; Slavs.

المؤلف المرسل: عبد الله حرمه، الإيميل: abde.harma@univ-adrar.edu.dz

This is an open access Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria. article under the CC BY license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

1. مقدمة:

من صفات العربي منذ القدم السفر والانتقال من مكان لآخر لكن بعد الفتوحات انتقل للاطلاع على ثقافة الشعوب الأخرى، فدون الرحالة مشاهداته وتنقلاته لمختلف الممالك، منها ما كان مع ابن فضلان التي بيّنت رحلته تمايزا بين ثقافته (الذات) وثقافة الصقالبة (الآخر) من خلال العادات والتقاليد الخاصة بكل أمة والتي تشكل إرثا تاريخيا وأدبيا، فما هي أوجه المقارنة بين ثقافته وثقافة هذا الآخر؟ وما الجوانب التي تضمنتها؟

وقد اعتمدت منهجا وصفيا تاريخيا مناسبا لطبيعة الدراسة، مع افتراض عدم وصول الدين الإسلامي لعديد الممالك، أو أن السيطرة كانت لديانات أخرى لم يقم القائمون عليها بواجبهم في إصلاح أممهم لأسباب عدة، كما تهدف الدراسة للتطلع على الآخر ومحاولة الانفتاح عليه لتحقيق التمازج والتكامل بين الثقافات والحضارات المتباينة، بمنهجية التزيين لفكر الذات من منطلق الأفضل وتقبيح الغير الأجنبي الذي اتسم بسلوكات وأفعال منافية للقيم والمبادئ السامية، ما تجعل الرحالة في حالة من الدهشة تدفعه نحو التغيير في طبائعهم وأخلاقهم.

2. مفهوم الرحلة:

1.2. لغة:

جاء في معجم الصحاح: «رَحل فُلان وارتَحَل وترَحَّل بمعنًى، والاسم: الرَّحيلُ. ورَحَّلتَه بالتشديد: إذا أَظعَنتَه من مكانِه وأرسلتَه. ورَجلٌ مُرحِل أي: له رَواحِلُ كثيرة. ونَاقَة رَحيلَةٌ، أي: شَديدةٌ قَويَّة عَلى السَّير» (الجوهري، 2009م، صفحة 433). بينما ورد في اللسان في مادة (ر ح ل) معاني منها: «رجلُ رحولٌ وقوم رُحَّل أي يرتحلون كثيرا. والتَّرحُّل والارتِحالُ: الانتِقالُ وهُو الرِّحلة والرُّحْلة. الرِّحلة: اسم للارتحال للمَسير. والرَّحِيل: القَوي على الارتِحال والسَّير، والأُنثى رحِيلَة. والمُرتَحَل: نَقيضُ المَحَلّ» (ابن منظور، 1984م، الصفحات 277-279).

وفي التنزيل قال تعالى في سورة قريش: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (القرآن الكريم). ومنه فإن الرحلة: كتاب يصف فيه الرحالة مشاهداته وما رآه.

2.2. أدب الرحلة اصطلاحا:

ويعرف بأدب الرِّحلات حين يقف على عديد الآثار الأدبية والتي تمثل انطباعات الكاتب الكثيرة عن مواقع مختلفة، يذكر فيها طبائع الشعوب التي انتقل إليها وسلوكاتهم المختلفة عما ألفه خلقه، وتدوين أجواء الطبيعة بوصف وتصوير عالي الدقة، وقد يسجلها بصورة سلسة يكثر فيها ترتيب السرد جملة واحدة (وهيبة و المهندس، 1984م، صفحة 17). في عديد المناطق والأماكن التي سروا فيها وشاهدوا سلوك شعوبها وحياتهم الاجتماعية والسياسية وحتى اختلاف طريقة بنائهم (الفاضل، 2003م، صفحة 154).

كما تمثل الرحلة نصا تاريخيا وأدبيا حين يقف على معاينة ومشاهدة ووصف وسرد أحوال الشعوب التي ينتقل إليها الرحالة، وأخبار العلماء والعامة، كما توضح حقيقة الوعي الإنساني بذلك الآخر الذي تبيّن الرحلة طبيعته ورسمه، وأنها أداة فهم وتعريف لهذا الآخر، حيث أن التعرف عليه بعض معرفة حقيقته التي لا تتم إلا بمعرفة ذلك الآخر وفهمه.

كانت أسفار العرب قديما بالتجارة لموانئ الأقطار البعيدة كالساحل الإفريقي والهند، ومن أحوال العرب في هذا الجانب رحلة الصيف والشتاء (الفاضل، 2003م، صفحة 155).

فنستنتج معرفة العرب بالتقويم والمناطق ومسالكها منذ العصور الأولى للكتابة، فقد كتبوا مصنفاتهم في رحلات عامة تشمل مجالات الفن والأدب إذا تضمنت أشكال سردهم ووصفهم المشوق للأحداث التي مرت بهم في مشاهداتهم أثناء الرحلة، كما تعد فوائد علمية لما تشتمل عليه آثارهم من دلائل حقائق تاريخية وسياسية واجتماعية وجغرافية، وحتى ما خلفوه في المجال الحضاري والعمراني، لذا تباينت دوافعها وقوالبها.

كما أن المعارف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية تحمل قيما ثقافية بمشاهد فنية وأدبية سامية (أحمد، 2023م، الصفحات 54- 55).

ومنه نستخلص أن العرب كانت لهم معرفة بالتقويم والممالك والمسالك منذ البدايات الأولى للتدوين، فكتبوا تصانيفهم في رحلات شاملة يغلب عليها الجانب الفني الأدبي لما تتضمنه من أشكال السرد والوصف الممتع في نقل الأحداث التي شاهدوها أثناء تنقلاتهم، إضافة إلى الفوائد العلمية التي تحتويها هذه الرحلات من مختلف القيم التاريخية والسياسية والاجتماعية والجغرافية المتباينة في شكلها ومضمونها.

3. نبذة تعريفية لصاحب الرحلة:

هو الرحالة أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد صاحب رسالة ابن فضلان المشهورة، (الزركلي، 2002م، الصفحات 195- 196)، فاختلفت روايات المصادر في تاريخ الوفاة لتلف أصاب نهاية رسالته، فمنهم من يقول بأنه «توفي في حدود 309ه تسع وثلاثمئة» (البغدادي ، 1951م، صفحة 57)، وقول آخر أن وفاته كانت بعد 310ه (الكملائي، 2018م، صفحة 129)، وقد أوفده الخليفة المقتدر إلى أمير بلغار والذي طلب منه توضيح الدين الإسلامي وأن يفقهه فيه بعد إسلام هذا الأخير (أحمد، (د ت)، صفحة 45)، في حين أن الكملائي بيّن اعتناقهم له في وقت زمني غير بعيد (الكملائي، 2018م، صفحة 128).

وقد تعرض ابن فضلان لحملة تشويه من بعض الغربيين بيّنها جهاد الترباني غرضها الانتقاص منه ومن دينه لا يقبلها ذو العقل أبدا (جهاد ، 2010م، صفحة 399)، لأن لابن فضلان السبق الزماني والمكاني بين غيره من الرحالة، إضافة إلى الشهرة التي عرفت بها من حيث الاهتمام والأهمية في وقتنا الحالي (كراتشكوفسكي، 1963م، صفحة 186).

ومن المصادر التي وقفت على هذه الرحلة معجم البلدان لياقوت الحموي بعد حصوله على أصل رسالة ابن فضلان في مدينة مشهد قدمها في اختصار موجز (بروكلمان، 1983، صفحة 242)، فهي بهذا تمثل أنفس المدونات عن أمم الترك والصقالبة والخزر والروس (مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، 1985م، صفحة 32).

4. دراسة تحليلية لرحلة ابن فضلان:

لقد بدأ الوعي بثنائية الذات والآخر في المراحل الأولى لتكوين المجتمع الإسلامي زمن الحضارة العربية الإسلامية، فكان مقياس الحُكم في العهود الأولى يرجع في الأساس للانتماء العقائدي والاجتماعي، بعدها تشكلت صورة الآخر في منظور الإسلام عن طريق احتكاك الشرق بالغرب لعدة أسباب ساهمت في ذلك، بعدها زاد تنوع هذه الصور مع التطور الحضاري المتجدد للأمة العربية الإسلامية.

لقد كان النصيب الأكبر لمشاهد صور الآخر في صفحات أسفار الرحلات والجغرافيا المدونة، باعتبارها المنابع الأولى لذلك الآخر، الذي يختلف معتقده عن قيم الإسلام ودينه لانتمائه إلى حيز غريب عنه وعن نهج طريق الخلق القويم في سلوكه (حسين، 1989م، صفحة 181).

عرف العالم تصادمات عديدة في العهود الماضية بين الشرق والغرب نتج عنه ظهور قوى جديدة على السطح، أدت لزيادة التوتر والاضطراب أججه وعي كل طرف بالآخر أدى إلى اصطدام العلاقة بينهما، وقد وصل هذا للمسلمين أيضا ظهر في طيّات فصول الرحلات العربية في العصر القديم والحديث، لأنهم كانوا جزءا من هذا الاحتكاك، وهو ما سنورده من رحلة ابن فضلان.

5. ابن فضلان في بلاد الصقالبة:

وصل الإسلام بلاد الصقالبة عامة أيام الفتوحات الإسلامية، حيث حكى ذلك ابن روسته (توفي 290هـ/ 903م) في رسالته، إلا أن إسلامهم لم يتغلغل إلى نفوسهم قدر إيمان أهل الجزيرة، «لكنهم كانوا يتميزون بعادات وتقاليد تدل على رقيهم الحضاري» (شرف، 2000م، صفحة 72).

إلا أن هذا نجده مخالفا عما نقله لنا ابن فضلان في رحلته من تردي في الاخلاق والعادات والمعاملات إلا بعضها، وكان الدين الإسلامي لم يصل إليهم قط، فأعمالهم غير خاضعة لشرائعه، وقد استقبح ابن فضلان أكثر من مرة بعض عاداتهم كطريقتهم في تشييع الجنائز وأحوالهم في النظافة وقسوة طباعهم وغيرها من الأفعال التي أنكرها ابن فضلان، ونفصل ذلك بتقسيم نظرته للآخر على نمطين: نظرة يبرز فيها ثقافته الذاتية ونظرة أخرى يقف فيها موقف إعجاب.

6. نصوص تبرز ثقافته الذاتية: في قراءتنا المتكررة لنصوص الرحلة وجدنا مواقف كثيرة يبرز فيها الرحالة ثقافته الذاتية النابعة من تعاليم الدين الإسلامي، فنجد:

1.6 صورة المَلِك عندهم:

رأينا ابن فضلان يعلمهم مراسيم الاستقبال، ويلبس ملكهم زيَّ العرب ليتسنى له قراءة الكتاب المبعوث من الخليفة المقتدر بالله فيقول: أنهم اجتمعوا يوم الخميس نشرنا المطردَين «المطرد: بالكسر: رمح قصير يُطعن به الوحش» (الجوهري، 2009م، صفحة 695) المرافقين لنا، فقمنا بإسراج الدابة بالسرج الموجه إليه، ثم ألبسناه السواد(السواد: هو شعار ولون العباسيين الرمزي) وعممناه (عمّمْناه: ألبسناه العمامة)، وأخذت كتاب الخليفة أمامهم وأخبرتهم بأنه: لا يجوز الجلوس والكتاب يقرأ (ابن فضلان، 2003م، صفحة 75).

ثم يعلمهم كيفيه رد السلام على الخليفة وإن كان بعيدا في أنظارهم فهو قريب إلى نفوسهم، وبدأت فقرات أول الكتاب فلما وصلت منه: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو إليك، فقلت: رُدُّوا على أمير المؤمنين السلام فردَّ ثم ردُّوا بعده جميعا (ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، 1959م، صفحة 114).

يستدرج بعدها في تلقين ملك الصقالبة تعاليم الدين الإسلامي دون خجل أو حشمة، فالملك وهو فوق المنبر يخطب خطبة رسميه لجمع غفير من الناس إلا أن ابن فضلان لم يمنعه ذلك في تلقينه آداب الكلام خاصه عند مخاطبته للخليفة، حيث يقول: وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي: اللهم وأصلح الملك يلطوار ملك بلغار، فقلت أنا له: إن الله هو الملك ولا يسمى على المنبر غير اسمه جل وعز، ثم تابع يعلمه دون ريب أو خوف يلقنه حسن التأدب في الدعاء لله، بعدها قال لي: وكيف يصح أن يخطب لي؟ قلت: يجوز باسمك واسم أبيك قال: إن أبي كافر ولا أحبذ ذكر اسمه على

المنبر...، ولكن ما هو اسم مولاي أمير المؤمنين؟ قلت: جعفر قال: فيصح أن أتسمى باسمه؟ قلت: نعم يجوز قال: فإني جعلت اسمي جعفرا وحتى اسم أبي عبد الله (ابن فضلان، 2003م، صفحة 80).

2.6 صورة الميراث:

ثم ينتقل ليصف لنا كيف كان عندهم نظام الوراثة الذي استنكره بشده، كونه يخالف نظام الوراثة في الإسلام، فإن مات الرجل منهم ورثه أخوه وحُرِم ولده فأخبرتُ الملك أن هذا الفعل غير جائز، وعرَّفته المواريث وطريقتها حتى فهمها (ابن فضلان، 2003م، صفحة 87).

3.6. صورة الأخلاق:

يصف أهل الصقالبة بتلك الصورة التي وصف بها أهل الترك وهي استهتارهم في كشف عوراتهم، فلا تستر المرأة من الرجل، فكل يغتسل في نهر واحد دون عازل أو عارض، (ابن فضلان، 2003م، صفحة 89) ينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعا عراة لا يستترون عن بعضهم البعض.

ينقل لنا ابن فضلان مدى اجتهاده في محاربه مثل هذه الظواهر المخالفة لدين الله والتي بقيت في نفسه، لكنه يتأسف لأنه لم يستو له ذلك فيقول: وما زلت أبذل جهدي تستّر النساء من الرجال أثناء السباحة فلم يستقم إليّ ذلك (ابن فضلان، 2003م، صفحة 92).

لكن هذا لم يضعف إرادته في نشر تعليم الدين الإسلامي وهو الهدف الذي جاء من أجله، حيث نجد العديد من الناس دخلوا على يده الإسلام، فينقل لنا صورة عن أحد الأشخاص ممن كتب لهم اعتناق الدين الإسلامي، رجل يقال له طالوت وقد أسلم على يدي فأسميته عبد الله، فقال: أريدك أن تسميني باسمك محمد فلبيت طلبه، ثم أسلمت امراته وأولاده وأمه (ابن فضلان، 2003م، صفحة 93)، فعلمهم القراءة والكتابة وكيفية أداء الصلاة، ثم بنى لهم مسجدا من خشب يصلّون فيه.

ولا يفوت ابن فضلان بوصفهم أبشع الصفات لما رأى فيهم من قذارة وقسوة في المعاملة وتفسخ في الدين وإباحية، فهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضاً، فالأخلاق من المعايير التي ترفع أمة أو تنزل بها إلى مراتب دنيا، جعل هذا من إصرار الرحالة في استمراره على بذل الجهد أكثر.

شبههم بالحمير لعدم إعمال عقلهم في التدبر والتفكر، يدرك أن لهذا الكون خالقاً هو أولى بالعبادة فهي نظرة دونية للآخر مبنيه على مفاضله الدين الاسلامي على غيره، باعتبار الدين عند الله الاسلام.

أدى عدم استخدام الصقالبة للفكر والعقل إلى النزول إلى مرتبة البهائمية، لأنهم لم يتدبرا في خالق هذا الكون ليتوصلوا إلى عبادته وتحقيق الغاية من هذه الحياة، فهنا نجد ابن فضلان يغلب الدين الإسلامي ويفضله على غيره انطلاقا من ذاتية التي يراها مسايرة للصواب.

وقد بيّن صفات الصقالبة الباحث كراتشكوفسكي بالبهائمية والغلظة والغباء، خاصة عندما تنتقل ناحية الشمال التي تزداد فيها شدة وصلابة

(كراتشكوفسكي، 1963م، صفحة 182)، وأجناس الصقالبة تتنوع وتتوسع حسب ملوكهم المنتشرة في الشمال لهم مدن وعمائر كثيرة (المسعودي، 1983م، صفحة 33). من مدنها لوبارة وسينة وقسطيلسقة عمارتها حسنة وكثيرة، ولهم مراكب تقل وتكثر (الإدريسي، 2002م، صفحة 768، 769)، وهم أجناس مختلفة ما يؤدي إلى نشوب حروب بينهم (المسعودي، 1983م، صفحة 32)، تتصل حدود الصقالبة مع مملكة الروم تجاور الروس والأرمن واللّان وكلهم يدينون بالنصرانية (الأصطخري، 1927م، صفحة 04).

إذا انتقلنا إلى بعض عاداتهم وتقاليدهم المتعلقة بمظاهر الاحترام وطريقتهم في الأكل والدفن وبعض مظاهر الإعجاب التي انبهر بها ابن فضلان خاصة تلك التي تتعلق بالظواهر الطبيعية مثل قصر الليل وطول النهار، حيث نجدها نسبيا أقل من تلك التي أبرز فيها ثقافته الذاتية.

7. نظرة ابن فضلان لثقافة الآخر:

1.7 صورة الآخر في الطعام:

إن موضوع الطعام نادرا ما أغفله الرحالة المسلمين سواء في القديم أو الحديث لما في الطعام من أهميه ليس إلا كونه غذاء الجسد بل يرتبط بإدراك الوضع الاقتصادي والاجتماعي، بل حتى المعتقد الديني لدى الشعوب وربما يشمل كافة مظاهر حياة الإنسانية المادية والفكرية، وعلى هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الأنتروبولوجي (حسين، 1989م، صفحة 189).

فطريقة جمعه وطهيه وآداب تقديمه وتناوله ما هي في حقيقة الأمر إلا سبيل ندرك من خلاله درجه مستوى رقي حضارة ما أو تدنيها، وابن فضلان في هذه الرحلة كغيره من الرحالة ينقل لنا صورة إثنوغرافية ثرية عن الطعام في بلاد الروس عامة في قالب فني شيق، ويظهر ذلك جليا عند وصوله لبلاد الصقالبة.

فلما قرأ ابن فضلان كتاب الخليفة وكتاب الوزير حامد بن عباس على ملك الصقالبة ألمش بن يلطوار انصرف وهو والوفد المرافق له، وبعد ساعة دعاهم الملك إلى مائده الطعام وهي وجبه رسمية اقيمت على شرفهم، ليبدأ بوصفه الدقيق لطريقه جلوسهم ومكانة الملك بينهم وهو في قبته والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس على يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه وهو وحده على سرير مغشي بالديباج الرومي (ويسمى أيضا الحرير الرومي، وكان مشهورا بجودته في القرن الرابع الهجري).

حتى يصل إلى طريقه تقديمهم الطعام وهي طريقة تدل على تقدمهم الحضاري، حيث يكون السبق دائما للملك وهو طبع تعارفوا عليه لإظهار الاحترام له، بعدها يُطلب لكل الحاضرين مائدة مستقلة عن الآخرين، حيث يقول: طلب المائدة فقدّم عليها اللحم المشوي لوحده، فابتدأ هو حيث أخذ سكينا وقطع لقمة وتناولها وثانية وثالثة، ثم أخذ قطعة دفعها إلى سوسن (هو سوسن الرسي كما ورد في نص الرحلة، ويخمن سامي الدهان بأنه حاجب الخليفة المكتفي، سمي بذلك نسبة إلى نهر الرس) الرسول حين تناولها جاءته مائدة صغيرة وضعت بين يديه، وهو العرف عندهم فلا تمتد يد أحدهم إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة... ثم أكلنا كلّ فرد من مائدته لا يشاركه أحد فيها، ولا يتناول أي شيء من مائدة غيره (ابن فضلان، 2003م، صفحة 76).

وذكر الطعام عادة يليه الحديث عن الشراب، فرسم أهل الصقالبة شرب النبيذ بعد وجبة دسمة وهم يسمونه السجو، وبعد الأكل دُعي بالسجو وهو معروف عندهم شراب من العسل ليومه وليلته، فشرب قدحاً بعدها قام قائلا وقال: هذا فرحي وسروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله في عمره (ابن فضلان، 2003م، الصفحات 77-78).

ونشير إلى أن سامي الدهان رأى أن ابن فضلان لم يشارك الملك في مائدة الشراب، إلا أن قراءتنا لما جاء به ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان: «فشرب وشربنا» (الحموي، 2006م، صفحة 486). نرى أنه شارك في هذه المائدة وأن القدح لم يكن شرابا بل كان عسلا كما ورد في الرحلة، عكس ما لفقه بعض المستشرقين بشخصية ابن فضلان على أنه كثير الاحتساء للشراب، وهذا ما يتنافى مع الغرض الأساسي الذي قدم من أجله وهو تعليم مبادئ الدين الإسلامي على صورته الصحيحة، إلا أن مثل هذه الهجمات التي تحاول النيل منه ومن غيره دائما يكونون طرفا فيها، أو أنهم يثيروها لبث الريبة والشك.

ثم يشير ابن فضلان إلى طريقتهم في حفظ الطعام: لا توجد لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم، إلا أنهم يحفرون آباراً في الأرض يضعون الطعام فيها، حتى تمضي عليه أيام قليلة فيتغير ويريح، حينها لا ينتفع به (ابن فضلان، 2003م، صفحة 87).

ثم يفرق بين طعام العامة والخاصة من أهل الصقالبة: ويصنعون من الشعير حساء يقدمونه للجواري والغلمان، وربما طبخوا الشعير باللحم فيأخذون اللحم للوالي ويطعمون الجواري الشعير، إلا إذا كان رأس تيس فيُطعَم من اللحم (ابن فضلان، 2003م، صفحة 87).

وربما استحضر ابن فضلان سورة الطعام في بلاده التي تنم لما لهذه الحضارة من تقدم ورقي، فتقديم الطعام لدى الخاصة كان مختلف عنه لدى العامة وأما تقديم الطعام عند العرب في تلك الفترة فيختلف، حيث يوضع الطعام أمام الآكلين وترك حرية الاختيار وفق ما يوضع من أطباق متنوعة، فالعامة تهش اللحم وتلعق الدهن من الأصابع، أما الخاصة فيستخدمون السكين في تقطيع اللحم قطعا صغيرة ويمضغونها بهدوء دون إحداث صوت، ولم تكن لديهم عاده لعق الأصابع أو الإكثار من الملح، أو شرب الحساء عن طريق رفع الإناء إلى الفم، ولم تكن الشوكة عرفت بعد، لكن استخدموا الملاعق المصنوعة من الزجاج أو النحاس، بل أحيانا بالذهب والفضة، ومن عادات العباسيين غسل أيديهم قبل الطعام وبعده في قاعه الطعام أو خارجها وتجفف الأيادي بالمناشف الحريرية المطرزة (آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، د ت، الصفحات 236-239).

إذاً الحديث عن الطعام عند العامة والخاصة يثري فهمنا بالكثير عن أحوال المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما أثرى به ابن فضلان فهمنا بنقله عادات الطعام عند أهل الصقالبة، مستحضرا سورة الطعام في الدولة العباسية، والتي تبين لنا من خلال هذا الوصف أن أهل الصقالبة كانوا في درجه متقدمة في استحضار مائده الطعام ومراسيم الجلوس لها.

2.7 مظاهر الاحترام:

من مظاهر الحضارة التي امتازوا بها مراسيم احترام الملك وتحيته في الطريق كبيرهم وصغيرهم، بل حتى أقاربه كأولاده وزوجاته، وكلهم يتفقون على طريقة واحدة في التحية لملكهم، فجميعهم يلبسون القلانس (جمع قلنسوة: وهي لباس الرأس)، يركب الملك وحده دون غيره من الغلمان، فإذا مرّ في السوق أخذ الكل قلنسوته ووضعها فوق رأسه فلم يبق أحد إلا قام وجعلها تحت إبطه، فإذا ابتعد عنهم ردوا قلانسهم إلى رأسهم... وحتى الذي يجلس بين يديه فإنه يجلس باركا دون أن يخرج قلنسوته أو يظهرها حتى يخرج من عنده فيلبسها بعد ذلك (ابن فضلان، 2003م، صفحة 87).

وهذا ما يساهم في غرس قيم اجتماعية سامية من خلال استمرارها وتعليمها للأجيال، لما لها من تعظيم في نفوس قادتهم وملوكهم، كما تساهم في استتاب الأمن الداخلي رغم الصراعات الخارجية التي عرفوا بها.

أما ما يتعلق بمظاهر الإعجاب فرأى في بلادهم من العجائب كثرة ما لا أحصيه من ذلك، فاستغرب من طول النهار قصر الليل وأُعجب من كثرة الحيّات عندهم، حيث تلتف العشرة منها والأكثر على غصن الشجرة فلا يقتلونها ولا تؤذيهم (ابن فضلان، 2003م، صفحة 90).

في هذه المظاهر تغيب ذاتية الرحالة ابن فضلان لأنها تحمل صفات ومُثل عليا تمثل الجوانب الإيجابية للعلاقات الاجتماعية بين مختلف فئاتها وطبقاتها وحتى مسألة قربها أو بعدها من الملك، بينما إعجابه بطبيعة الصقالبة فهي من عناصر الكون التي لا دخل لهم فيها وليست لهم القدرة على تغييرها لاعتيادهم عليها، إلا أنها تشكل دهشة وانبهارا للرحالة والمهاجرين إليهم.

8. خاتمة:

لقد شكلت الرحلة قديما بمختلف صورها المتنوعة وأهدافها المتباينة أحد الركائز الأساسية المساهمة في بناء حضارتنا العربية الإسلامية، لأنها أداة من أدوات المعرفة الغنية بمادتها الإثنوغرافية الثرية حينا والغريبة أحيانا أخرى، حيث ساهمت في اكتشاف الآخر المختلف عنا من عدة جوانب حياتية سواء كان من ابن فضلان أو حتى من الرحالة الآخرين عبر أزمنة كثيرة ومتعددة، ومما توصلت له من نتائج أهمها:

- ظهور شعور التفوق لدى ابن فضلان حين أنكر ثقافة الآخر.
- تحفظه عن بعض العادات وإظهار مبدأ الاحترام لبعض أعراف الآخر.
- مثلت الطبيعة عنده مظهرا من مظاهر الإعجاب والدهشة بخلاف التقاليد والعادات السائدة عندهم.
- يكمن اختلاف ابن فضلان عن بقية الرحالة أنه انطلق من مبدأ التفوق الحضاري أثناء وصف هذا الآخر؛ لأن الحضارة العربية الإسلامية عرفت ازدهارا وتطورا في القرن الرابع من الهجرة، لكن هذا لا يمنع أي رحالة مسلم من اكتشاف ثقافة الآخر، وأحيانا يأخذ منها إذا وافقت قيم دينه الإسلامي.
- تختلف رحلة ابن فضلان عن غيره من الرحالة عندما هاجر لتعليم أهل الصقالبة مبادئ وتعاليم وقيم دين الإسلام.
- يظهر المنهج المشتمل أساسا على تفوق الذات على الآخر (الغير)، والمرتبط بثنائيتي التزيين والتقبيح.
- تبدو سمة المفاضلة ظاهرة في وصف مشاهد رحلته.
- يعد الدين (الإسلام) ركيزة أساسية لإظهار دونية الآخر لدى ابن فضلان، ثم يضاف له الأسباب العرقية والحضارية، وهي نظرة قاصرة عند بعض الرحالة في التفاضل بين الأمم والشعوب.
- انتشر في تلك الحقبة الزمنية الاحتكاك الثقافي والاتصال الحضاري بين المسلمين العرب وغيرهم من الشعوب والأمم التي فتحوها من منطلق الأخذ والعطاء المتبادل في شتى مجالات الحياة خاصة الجوانب السياسية والإدارية بعيدا عن الصراع الحضاري، لما تميزت به حضارة العرب الفاتحين من غلبة وتفوق، والمصادر المدونة في سجلات الأوائل أكبر دليل على ذلك.

ومن الاقتراحات:

- ضرورة الوقوف على مختلف الجوانب المتعددة في نصوص الرحالة خاصة ما يتعلق بالجوانب السياسية والاقتصادية وحتى الفكرية.

- العمل على القيام مقارنة نصوص الرحلة في التراث العربي مع مثيلاتها في الثقافات الغربية لدى الكتاب والمستشرقين والباحثين.
- إبراز مظاهر التداخل الحضاري بين الأمم والشعوب والثقافات بغية تحقيق التكامل من خلال تقريب وجهات النظر بينها بما يتوافق مع المبادئ والقيم الأساسية.
- الوقوف على مظاهر التشابه والاختلاف بين كتابات ابن فضلان عن الأمم العربية وغيرها من الأمم والثقافات التي انتقل ورحل إليها.
- قراءة في نصوص رحلة ابن فضلان ومعالجتها من حيث الجوانب اللغوية والفكرية والثقافية ثم استخراج قضايا نقدية لدراستها.

قائمة المصادروالمراجع المعتمدة:

01- إبراهيم بن محمد الأصطخري. (1927م). *مسالك الممالك*. ليدن: مطبعة بريل.

02- أحمد ابن فضلان. (1959م). *رسالة ابن فضلان*. (سامي الدهان، المحرر) دمشق: مطبوهات المجمع العلمي العربي بدمشق.

03- أحمد ابن فضلان. (2003م). *رحلة ابن فضلان* (الإصدار د ط). (شاكر لعيبي، المحرر) أبو ظبي، عمان: دار السويدي، دار الفارس.

04- أحمد الفاضل. (2003م). *تاريخ وعصور الأدب العربي*. بيروت: دار الفكر اللبناني.

05- إسماعيل باشا البغدادي . (1951م). *هدية العارفين*. بيروت- لبنان: دار إحياء التراث العربي.

06- إسماعيل بن حماد الجوهري. (2009م). *الصحاح*. (محمد تامر محمد، المحرر) القاهرة: دار الحديث.

07- أغناطيوس كراتشكوفسكي. (1963م). *تاريخ الأدب الجغرافي العربي*. (عثمان هاشم صلاح الدين ، المترجمون) القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

08- التراباني جهاد . (2010م). *مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ*. مصر: دار التقوى للنشر والتوزيع.

09- الشريف الإدريسي. (2002م). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (المجلد مجلد 01). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

10- القرآن الكريم. (بلا تاريخ). *سورة قريش*.

11- جمال الدين ابن منظور. (1984م). *لسان العرب* (المجلد 11). قم إيران: أدب الحوزة.

12- خير الدين الزركلي. (2002م). *الأعلام*. بيروت- لبنان: دار العلم للملايين.

13- عبد العزيز طريح شرف. (2000م). *الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي*. الإسكندرية: موسوعة الثقافة الجامعية.

14- علي بن الحسين المسعودي. (1983م). *مروج الذهب ومعادن الجوهر* (المجلد ج2). (محي الدين عبد الحميد محمد، المحرر) بيروت: دار الفكر.

15- عمر أحمد. (2023م). *أدب الرحلات والأسفار*. تركيا.

16- كارل بروكلمان. (1983). *تاريخ الأدب العربي* (المجلد ج4). (يعقوب بكر السيد، و عبد التواب رمضان، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.

17- م. ف مينورسكي. (يناير, 1985م). الجغرافيون والرحالة المسلمون. (حميدة عبد الرحمن، المترجمون)

18- متز آدم. (د ت). *الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري* (الإصدار المجلد 02). (محمد عبد الهادي أبو ريدة، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.
19- مجدي وهيبة، و كامل المهندس. (1984م). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب* (الإصدار الطبعة 02). مكتبة لبنان.
20- محب الرحمن الكملائي. (2018م). *البدور المضية في تراجم الحنفية* (المجلد ج3). القاهرة: دار الصالح.
21- محمد فهيم حسين. (1989م). *أدب الرحلات* (الإصدار د ط). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
22- ياقوت الحموي. (2006م). *معجم البلدان* (الإصدار المجلد 01). بيروت: دار صادر.

السيرة الذاتية للمؤلف

عبد الله حرمه أستاذ محاضر بقسم اللغة والأدب العربي كلية الآداب واللغات بجامعة أحمد درايعية أدرار الجزائر، متخصص في الدراسات الأدبية .
.والحضارة الإسلامية، حيث شاركت في العديد من الأيام الدراسية والملتقيات الوطنية والدولية، ونشرت بعض المقالات العلمية في مجلات جزائرية وعربية.